

الرواية النسوية العربية الجزائرية من الحضور المحتشم إلى التأصيل

هدى عماري

الملخص

يتناول هذا المقال تتبع تطور الخطاب الروائي النسائي الجزائري المكتوب بالعربية، ويأتي هذا الاهتمام بمثل هذه الظاهرة الأدبية نتيجة للتطور الملحوظ الذي تشهده الساحة الأدبية والروائية الجزائرية مع تزايد الأعمال الروائية النسائية لتصنع لنفسها حضوراً متميزاً على المستوى المحلي والعربي، وترسم لذاتها مكاناً على خارطة الإبداع الروائي النسائي العربي، وبخاصة أننا نعلم أن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية تأخر ظهورها مقارنة بشقيقتها في المشرق - فما بالك - بالرواية النسائية التي عرفت تعثراً لسنوات طويلة نتيجة للتهميش وانتشار الأمية بين الجنسين وخاصة بين النساء أما الأقلية المتعلمة؛ فكانت مفرنسة ولهذا السبب جاء النص الأدبي الجزائري باللغة الفرنسية سباقاً ولا يخفى على بال الدارس للخطاب الروائي النسائي الجزائري، أنه مرّ بمراحل عدة فمن الغياب أو الصمت الذي خيم على عشرية الستينيات إلى الحضور الخجول والمتواضع في السبعينيات إلى الحضور الفاعل في التسعينيات وبداية الألفية لا يمكن للباحث تجاوزه، ومن الواضح أن ميلاد الرواية النسائية العربية الجزائرية تزامن مع تحسن الوضع الثقافي عقب الاستقلال، وارتبط ارتباطاً وثيقاً بالانفتاح الذي سمح للمرأة المشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية .

Résumé

Cette recherche se porte sur le développement du discours narratif féminin algérien écrit en arabe.

Notre intérêt pour cette recherche est dû à l'évolution du roman algérien et en particulier le roman féminin, présent de plus en plus à l'échelle nationale et arabe tout en sachant que le retard l'apparition du roman au moyen orient alors que dire du roman féminin marginalise depuis si longtemps à cause de

الرواية النسوية العربية الجزائرية من الحضور الممتد إلى التأصيل

l'alphabétisme dans le milieu féminin. Quant à la minorité instruite, elle était francophone d'où le discours littéraire algérien en primauté français.

Le roman Algérien est passé par plusieurs étapes du silence durant les années soixante : un silence timide et modeste dans les années soixante à une présence effective pendant les années soixante dix et le début de ce millénaire.

La naissance du roman Algérien en langue arabe a coïncidé avec l'amélioration de la situation culturelle après l'indépendance ; cela est dû étroitement à l'ouverture permettant la participation de la femme dans la vie socio-politique.

لقد صارت الكتابة الإبداعية النسائية واقعا ملموسا من خلال تزايد الإصدارات الشعرية والروائية النسائية، فحري بنا الانتقال من مرحلة التأييد والمعارضة لهذا الإبداع إلى مرحلة ثانية أكثر حيوية وفاعلية تتم فيها مدارس هذه الأعمال بالوقوف على مضامينها وخصائص أساليبها وآلياتها الفنية، باستقراء بسيط لتاريخ الأدب العربي، يتأكد لنا أنّ للمرأة القدرة على الخلق والإبداع حتى وإن تواصلت المحاولات لتحجيم دورها وتعطيل إرادتها وتهميش كفاءتها، حيث تعرّض إنتاجها الأدبي للتعطيم بداية مع اللغة التي أعلنت ذكورتها "الأصل في اللغة التذكير"⁽¹⁾

وهكذا ظلّت السيادة الأدبية حكرا على الرجال ولزمن طويل، لذا تعين على المرأة الكاتبة أن تعي دورها في الساحة الإبداعية، وأن تُسخر قلمها للكشف عن خيالها الخصب وامتلاكها ناصية اللغة، وبراعتها في التعبير عن ذاتها، وهكذا تتمكن من اقتحام عوالم الكتابة الأدبية شعرية كانت أم سردية، ومهما يكن من أصل التسمية وفروعها، إلا أن الأدب النسائي والرواية النسائية بخاصة ظهرت لتدعم وضع المرأة وتحسن صورتها داخل المجتمع

إنّ المتتبع للنشاط الأدبي وحركة التأليف القصصي والروائي النسائي في الجزائر، يجده لا يختلف عن وضع الكاتبة العربية في المشرق، كون العملية الإبداعية مشروطة بتوافر الموهبة أولا والحرية ثانيا، وإن وجدنا مواهب كثيرة أنجبت الجزائر في فترات لم تنعم فيها بالاستقلال ممثلا في الأدب المنجز إبان الحقبة الاستعمارية إلا أنّ حرية الإبداع لم تحصل عليها الأدبية المبدعة نتيجة للوضع الاجتماعي المعقّد الذي كرّس سيطرة القيم الذكورية، في المقابل

نجد أنّ الرواية العربية في المشرق قطعت أشواطاً في التأليف الروائي مع بواكير النتاج الروائي المتمثل في كتابات "لبيبة هاشم" (1882-1952) التي أصدرت رواية عام 1904 بعنوان "قلب الرجل" و"عفيفة كرم" (1883-1924) التي كتبت رواية حملت عنوان "بديعة وفؤاد" عام 1906². ويمكن أن تُدرج روايتا "زينب فواز" و"لبيبة هاشم" السابقتان في قائمة الكتابة النسائية التاريخية، فالأولى استمدت مادتها الخام من التاريخ وقدمتها في قالب اجتماعي، يعالج قصّة حبّ، أما الثانية فقد تميّزت ببنائها الفني المتطور نسبياً.

أمّا الرواية النسائية الجزائرية فيعود ظهورها إلى الخمسينيات من القرن الماضي، وكانت البدايات باللغة الفرنسية التي لقيت رواجاً كبيراً كونها اللغة الرسمية آنذاك، وكان لزاماً التدريس بها في المدارس الحكومية وقتها في حين أن اللغة العربية لم تتجاوز كتابات الإصلاحيين في النوادي والجمعيات الإصلاحية وعلى صفحات الجرائد التي أصدرتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهذا يرجع في الدرجة الأولى إلى الظلم الاستعماري المسلط على العربية محاولاً محاصرتها ومنع انتشارها، أمّا الرواية الجزائرية ذات التعبير العربي فانتظرت حتى فترة ما بعد الاستقلال للظهور على أيدي كاتبات وأديبات كان لهنّ حظ تلقّي التعليم باللّغة العربيّة.

تشكّلت الرواية النسائية الجزائرية المكتوبة باللسان الفرنسي على يد كوكبة من الروائيات الجزائريات اللواتي حصلن على نصيب وافر من التعليم في المدارس الفرنسية، وامتلكن رصيداً ثقافياً ووعياً فكرياً بالقضية الوطنية وإحساساً مرهفاً بحياة مجتمع يعانين من الحيف والاضطهاد على كافة الأصعدة السياسية والاجتماعية والثقافية، فبرزت أصوات أدبية أمثال: الطاووس عميروش التي نشرت روايتها "الياقوتة السوداء"، ثم نشرت "جميلة

الرواية النسوية العربية الجزائرية من الحضور الممتد إلى التأصيل

دباش " رواية "عزيزة" عام 1947 ثم ليل صبار رواية آنسة الجزائر عام 1959 وكذا يمينة مشارا بروايتها "الغار المتفجر" .

وكان الصوت النسائي الأكثر تألقاً في سماء الإبداع النسويّ قبل الاستقلال الروائية " آسيا جبار" * التي نشرت روايتها الأولى "العطش" سنة 1957، " ناقد الصبر 1958، أطفال العالم الجديد سنة 1962، وتوالت أعمالها الروائية بعد الاستقلال " القبرات الساذجة" سنة 1967 ونساء الجزائر سنة 1980.

إنّ كاتبات الرواية بالفرنسية في تلك الفترة المبكرة لميلاد الرواية الجزائرية، قد تحدثن بكثير من الصدق عن معاناة الإنسان الجزائري وطموحاته، ونقلن مشاكله اليومية من فقر وتشريد وهجرة... فعلى الرغم من ثقافتهن الفرنسية إلا أن أعمالهن تفيض بالوطنية، تنطق بصوت الهم العربي، وتؤرخ للمشهد السياسي الجزائري ماضيه وحاضره بآلامه وآماله، وبالتالي فإنّ المتن الروائي تميّز بمعايشة الواقع الاجتماعي الجزائري وإشكالاته حيث أنهم لم يمارسوا الأدب إلا بعد التجارب التي اقتنوها، ومن المهم أن نلاحظ أنهم جميعاً قد مارسوا حرفة التعليم، فنجد آسيا جبار مثلاً قد اشتغلت بالتدريس قبل أن تدخل عالم الإبداع الروائي، مما سمح لها بالاندماج أكثر مع الثورة والنفوذ بعمق في نفوس الأهالي المستضعفين وتجسيد معاناتهم وبخاصة فئة النساء، ولهذا تُعد رواياتها وثيقة قيّمة للمجتمع النسوي الجزائري، فقد كانت "جبار" في مركز أفضل من غيرها من الكُتاب الجزائريين لتكشف عن أسرار ذلك العالم المغلق.³

تمكّنت آسيا جبار أن تسرق أضواء الاهتمام من خلال حضورها المتميّز، فقد انطلقت من خلال الإرث الثقافي والهم الاجتماعي المتراكم، تنسج خيوط تجربتها الإبداعية بكل إصرار على معالجة قضايا حساسة لها علاقة بوضع المرأة داخل رحم المجتمع الجزائري؛ من هنا فإن كوكبة من المثقفين باللغة الفرنسية اكتسبوا وعيهم عبر التجارب القاسية التي أذاقها

لهم المستعمر من اضطهاد وتنكيل، وهكذا بدأ الإحساس بدنو ساعة الانفراج وبزوغ شمس الحرية، مع تنامي وعي ثقافي وإبداعي عند الأدبيات الجزائريات الكاتبات باللغة الفرنسية .
أما الرواية النسائية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية، فإنَّ نموها كان أبطأ وأقلَّ نصيباً من التطور، فبينما كانت نظيرتها المكتوبة باللغة الفرنسية في هذه المرحلة تقطع أشواطاً ملموسة على يدي أدبيات جزائريات، نلفي الأولى لا تزال تبحث عن أرضية لتؤسس وجودها، باعتبار أنَّ الإنتاج الروائي يرتبط في الأساس بحجم التراكم والتطور المعرفي، لذا لم تظهر بوادرها الحقيقية إلا مع تلك الصور القصصية التي نشرت على صفحات البصائر قبل الاستقلال، وفي نهاية السبعينيات بدأت المرحلة الفعلية التي شهدت قفزة حقيقية للنهوض بالرواية النسائية في الجزائر، فزهور ونيسي كانت لها الريادة الأدبية في مجال المقال الاجتماعية والقصة القصيرة والرواية النسوية، لكن الريادة - كيف كان الأمر - تبقى لها بين بنات جنسها في الجزائر. ⁽⁴⁾

فما هي العوامل التي سببت تأخر ظهور الرواية النسائية العربية في الجزائر؟
يمكن أن نجمل العوامل التي أعاقَت نشأة الرواية النسائية العربية في الجزائر إلى فترة متأخرة في النقاط الآتية :

- انتشار الأمية في الأوساط الجزائرية وبخاصة النساء، حيث حرمن من متابعة التعليم في الفترة الاستعمارية، إلا بعض الأقليات التي سمحت لها إمكانياتها من مواصلة التعليم في المدارس الفرنسية، وفئة أخرى قليلة مقارنة بأولى التحقت بالمدارس الحرة التي أنشأتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ولعل هذا دليل أكيد على ظهور الرواية بالفرنسية مع أولئك الأفراد الاستثنائيين الذين أتقنوا الفرنسية واحتكوا بالثقافة والفكر الغربيين، فقدموا أفكارهم وطرحوا آراءهم في أعمال بلسان المستعمر، فقد كانت سياسة المستعمر تحرص على التعليم الفرنسي لتكوين نشءٍ موالٍ سياسياً وفكرياً لفرنسا، بهدف إدماجهم في

الرواية النسوية العربية الجزائرية من الحضور الممتد إلى التأصيل

المجتمع الفرنسي غير أن الوعي السياسي والثقافي للكاتبات والأديبات جعلهن يُعبّرُن عن معاناة الشعب وتوقه للحرية .

- كما أن الظروف التي أحاطت باللغة العربية قبل الاستقلال حالت دون حركة أدبية قوية ذات حضور بارز، حيث مارس الاستعمار أساليب قمعية لتضييق النطاق في استعمال العربية وتدريسها واعتبرها لغة أجنبية، ومن هنا طغت الفرنسية على مناحي الحياة بما في ذلك الإبداع الأدبي .

- المفهوم التقليدي للأدب فقد أولت الساحة الأدبية في تلك الحقبة عناية بالشعر، واعتبرته ممثلاً للأدب ؛ وما كان ينتشر على صفحات جرائد جمعية العلماء انحصر في الشعر ودراسته اعتقاداً أن الشعر هو الأدب الجزائري .⁽⁵⁾ فسيطرت النظرة التقليدية على الأذهان؛ تلك التي تعتبر الأديب الحقّ الذي يجسّن نقل المشاعر شعراً، يتفنّن نظمه ويُتقن صنعته .

- النظرة الدونية والرؤية الاحتقارية المكرّسة داخل المجتمع والتقاليد الاجتماعية التي تُعظّم إبداع الرجل وتُقرّم انتاجات المرأة، فالذهنية المحافظة "لا تسمح بوجود شعر في الغزل، فكيف بالقصة التي كان الفهم الشائع لها آنذاك، الارتباط بموضوعات الحب والمرأة وعلاقة المرأة بالرجل بوجه عام"⁽⁶⁾ . والأدباء أنفسهم لم يمتلكوا الجرأة الكافية على معالجة القضايا ذات صلة بعلاقة الرجل بالمرأة " وحتى الذين كتبوا الصورة القصصية وعالجوا مثل هذه الموضوعات لم يجرؤوا على ذكر أسمائهم الحقيقية، وإنما كانوا يوقعون بأسماء مستعارة مثلما كان يفعل محمد العابد الجليلي الذي كان يوقع صورة القصصية باسم مستعار وهو رشيد ."⁽⁷⁾

- للصحافة دور مهمّ في بعث الحركة الإبداعية، وتيسير سبل نشر الإنتاجات الأدبية ن والمساهمة في إقامة مشروع نهضوي ثقافي أدبي، غير أن الصحافة الوطنية إبان الفترة الاستعمارية ركّزت على الجانب السياسي والإصلاحي، وحتى وإن كان هناك اهتمام بالجانب

الأدبي فإنه انصبَّ على الشعر دون غيره من الأشكال الأخرى، " إذن فمن المؤكد أن الصحف التي ظهرت في هذه الفترات كان لها الأثر الكبير بشكل ما على قيام النهضة الفكرية وترعرعها، هذا بالإضافة إلى الصحف التي ظهرت فيما بعد، وكان بعضها مقتصرًا على جوانب دينية إصلاحية بحتة، أعاقت تطور المجال الإبداعي أو على الأقل حصرته وحددته في الشعر مثل الشهاب والبصائر الأولى والثانية." (8)

كما أن الرقابة الصارمة التي فرضتها السلطات الاستعمارية على الصحافة ودور النشر أضعفت حركة التأليف القصصي والروائي، واقتصرت على كتيبات دينية ومنشورات إصلاحية تربوية، ثم إنَّ حركة النقد للأعمال الأدبية والترجمة التي من شأنها أن تُطوِّر عجلة الإبداع وتُثمِّن الحس الأدبي والذوق الفني، وتُطلع الأدباء على الآداب الوافدة من بلاد المشرق، لم تعرف عناية بارزة خلال النصف الأول من القرن العشرين

نشأة وتطور الفن الروائي النسائي في الجزائر :

1 . إرهاصات الكتابة ومرحلة التأسيس :

عقب استقلال الجزائر عرف المشهد الثقافي الأدبي صحوة عارمة كان لها أثر بالغ في تطوير مسيرة الأدب وبخاصة فنِّي القصة والرواية، وبذلك خطت خطوات واضحة نقلتها من تلك التجربة الهشة إلى مكانة انتزعت بها الإعجاب والصدارة في ميدان البحوث النقدية، وبالتالي تخلص الفن القصصي والروائي النسائي من السطحية والمباشرة، وأصبح أكثر قدرة على استنطاق الذات وسبر أغوارها، وما كان للصحوة الروائية النسائية العربية في الجزائر أن تكون، لولا تضافر عدّة عوامل نلخصها فيما يلي:

- سياسة التعريب التي تبنتها الدولة الجزائرية عقب الاستقلال، في محاولة لإيقاف التأثير اللغوي الفرنسي على أبناء الجزائر، ولترسيخ قيم العروبة في جيل الاستقلال، ونكاد نجزم أن

الرواية النسوية العربية الجزائرية من الحضور الممتد إلى التأصيل

هذه السياسة كللت بنجاح نسبي، ودليل ذلك الرعيل الأول من القاصات والشاعرات الروائيات اللواتي اخترن العربية لغة لأعمالهن الأدبية .

إتاحة الفرصة للمرأة الجزائرية مزاوله التعليم ودخول عالم الجامعات والمشاركة الفعلية في الحياة العامة، وبهذا تمكنت من كسر تبعيتها لسلطة الرجل، كما أن اللقاءات الأدبية والملتقيات الثقافية والندوات الفكرية أغنت تجربتها الإبداعية، " وجعلتها قادرة على الإفادة من القدرات التخيلية وربط الحدث أو الحالة التي تشكل منطق تجربة لها، بما عرفت من قبل أو ببعض الخصائص والسمات فيها ".⁹ وهذا ما تحقق لدى أكثر من أديبة وقاصة جزائرية حينما تأسست المجلات الأدبية المهمة بعالم المرأة وانشغالها الثقافية وتطلعاتها في مجال الإبداع . ففي مطلع سنة 1970 تأسست مجلة (الجزائرية) الصادرة عن الاتحاد الوطني للنساء الجزائريات ترأستها "زهور ونيسي"، فكانت بادرة أولى فتحت المجال لبروز أقلام نسائية تحطت الحدود التي رسمتها في زمن ماض وعبرت بصدق عن آرائها وخواتمها، متجاوزة بذلك الأعراف الاجتماعية " لمجتمع مُثقل بالتقاليد البالية وبارث طويل من الظلم والفكر الإقطاعي، إنه مجتمع يمشي على كثير من جثث النساء البريئات ".¹⁰

إن تيسير سبل نشر الإبداع الأدبي، وتوسيع فضاءات للكتابة على صفحات الجرائد الوطنية والمجلات العربية سمح للكاتبة بتقديم إنتاجها للقارئ للإطلاع على خصوصية أديها ونمط تفكيرها، والتعريف بالأدب النسائي، " ولم تقتصر على الأدبيات الجزائريات، وإنما كان منبرا تلتقي فيه الأصوات النسوية العربية كـ "نور سليمان" اللبنانية والأديبة الكويتية "ليلي عثمان" التي تمتاز بنظرة ثاقبة للأدب ونقده ".¹¹

وقد أدت مجلة (آمال) الدور ذاته في نشر القصص القصيرة والمحاولات الشعرية للعديد من الكاتبات الشبابات أمثال "جميلة زنير"، "ربيعة جلطي" و"زينب الأعوج"، مما ساهم في تكوين مواهب نسائية صقلت تجربتها وحفّزتها على المضي قُدما في رحاب الإبداع

الأدبي، كما أن فترة الثمانينيات وبداية التسعينيات كانت حافلة بتواجد مساحات الحوار الثقافي البناء، وفضاءات لتلاقي وتبادل الخبرات والتجارب، وبالتالي زاد تنامي الحس الإبداعي القصصي والروائي مع جمعيات ثقافية تبنت المواهب ورعتّها وسهّلت لها سبل النشر كما هو الشأن مع رابطة الاختلاف" وجمعية "المحاذية".

2. مرحلة النشأة والتطور :

إن أول ظهور للإبداع النسائي الجزائري المكتوب باللغة العربية، جاء على شكل مقالات وصور قصصية قصيرة، كتبتها ثلة من الكاتبات الرائدات أمثال "زهور ونيسي" التي قدمت عدة مقالات اجتماعية أصدرتها البصائر التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، غير أن خصوصية مقالاتها القصصية لم تخرج عن الإطار العام الذي رسمت معالمه الجمعية، فتمحورت حول قضية المرأة في المجتمع الجزائري، وموضوعات لها علاقة بالتربية السليمة للفرد الجزائري " فالشكل الذي جاء عليه المقال القصصي لا يعدو أن يكون صورة بدائية للقصة، ذلك أن العناصر الفنية فيه غير منضبطة بقواعد هذا الفن تماما، كطول الزمن فيه والذي يمتد شهورا عديدة، وتنوع عنصر البيئة وحشد الأفكار الكثيرة والاستشهادات العديدة وبث الحكم والقناع في النص".¹²

ويمكن القول إن زهور ونيسي* هي أول أديبة قاصّة كتبت باللغة العربية في الجزائر، استنادا إلى الصور القصصية التي نشرتها قبل الاستقلال ومجموعتها القصصية الأولى "الرصيف النائم" سنة 1967، وإن كانت "ونيسي" قد برزت في فترة ما قبل الاستقلال متخذة من العربية والواقع الثوري والبعد الإصلاحية أدوات لتقديم بنية قصصية فنية، فإن هناك أديبة أخرى يمكن عدّها من اللواتي خضن الكتابة القصصية، إنها "زليخة السعودي"... صوت نسائي سخر قلمه للإبداع الرفيع الذي تتجلى فيه القيم الوطنية

الرواية النسوية العربية الجزائرية من الحضور الممتثل إلى التأجيل

السامية والمبادئ الخلقية الخالدة، يذكر الدكتور عبد الله ركيبي أنها نشرت قصة طويلة بعنوان "عرجون" بالعدد الصادر في مارس 1970 عن مجلة آمال .

ولعل ما يشير إلى الاهتمام بالحركة الثقافية النسائية ومتابعة نشاطاتها في الكتابة في هذه الفترة ما نشر في الصحف إما من باب المشاركة في إثراء الموضوع المطروح أو تنويه وإشادة بالإبداع النسوي، فقد كتب الأستاذ الطاهر وطار "مقالا بعنوان "مرحبا بالأدب النسوي" يشيد فيه بالأصوات النسائية التي بدأت تظهر فجر الاستقلال وبخاصة أن الاعتقاد السائد حينئذ أن هذا الأدب لا يزال فتيا، محاولاته ناقصة تتراوح بين القبول والرفض، تتأرجح بين النجاح والإخفاق، يقول: "من طالع جريدة الأحرار الغراء في أعدادها الأخيرة يجد هناك اسما مجهولا كان مطموسا مغمورا لا يلفت انتباه أحد إلا إذا تعمق في المدلول الذي يعطيه ما هو مقترن بهن في مقالات لم أقرأها لكثير من الكتّاب، هذا الاسم هو "زوليخة السعودي"؛ هذه المفاجأة جعلتني أقف موقف الاحتراز من جميع نظرياتي حول الأدب النسوي في الجزائر، كيف لا يُفاجأ من طالع "نحن والإبداع" أو "أغصان الزيتون" أو "سنلتي" أو "المرأة في الأدب الجزائري"، كيف لا يُفاجأ بذلك العمق وبتلك السيطرة على الكلمة، وتلك الدقة في تصوير المشاعر والإحساسات، وبتلك السلاسة والرقّة والأحكام الرصينة حول إنتاج كبار الكتّاب والإطلاع الواسع الذي تُبادرنا به تلك المقالات"¹³.

من المؤسف فعلا أن مثل هذه الشهادة في حقّ الراحلة "زوليخة السعودي"* ما كانت لتكون مقدمة لوضع إنتاجها الأدبي تحت مجهر البحث، بل بقيت أعمالها أسيرة الأرشيف لمدة طويلة، حبيسة في ذاكرة المقرّبين منها، حتى تمكّن الدكتور شريط أحمد شريط من جمعها في مؤلّفه "الأثار الكاملة للأدبية الجزائرية زوليخة السعودي"، وما يقال عنها ينسحب على عديد الأقلام النسائية في الجزائر التي كتبت في مختلف الأنواع الأدبية بداية

بالشعر والقصة وصولاً إلى الرواية، وأكدت قدراتها الفنية وكفاءتها الأدبية واستطاعت الخوض في تجربة الكتابة، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: "جميلة زنير، مريم يونس، زكية علال، نورة مناصرة وغيرهنّ .

والغريب أنّ الساحة الأدبية لم تحافظ على تواجد هذه الأسماء واستمراريتها، فالعديد منهنّ انسحبن فجأةً للداخل دون سابق إنذار، ويبدو أن سبب ذلك يرجع إلى تجاهل إبداعاتهنّ وعدم المبالاة بها وتهميش إنتاجهنّ وعدم العناية بطبعه ونشره، فاخفت هذه الأصوات في صمت على الرغم من الإمكانيات الفنية في تقديم نصوص أدبية جيدة لو توافرت لها ظروف الدعم والتشجيع .

هذا ما نلمسه من خلال تصريح جميلة زنير* عن ممارستها فعل الكتابة القصصية " كنت أكتب من غير أن يطلع أحد على كتاباتي أو يشجعني حتى على مواصلة الكتابة، فأنت تلاحظ أن القمع ينطلق من الأسرة إلى المجتمع (القبيلة) ؛ هذا المجتمع القبلي يارس عليك قمعا آخر أشد وأقسى ؛ عدم الاهتمام بما تكتب، فهو لا يشجعك، لأنه يرى هذه الأشياء ضرباً من العبث، تدخل في خانة لا يجوز، فكنت أول فتاة من جيغل تتجرأ على كسر أعراف القبيلة وتنشر اسمها عبر الإذاعة في أواخر الستينيات وبداية السبعينيات ."¹⁴

والأمر نفسه عانته الكاتبة مريم يونس التي تقول: " كانت دروبي في هذه المدينة الجميلة جيغل كلّها أشواك وعقبات، كانت عذاباً واضطهاداً عندما بدأت الكتابة فقد عُصتُ في دوامة من القيل والقال ولكنني لم أستسلم، قاومت في هدوء ومازلت إلى أن انتصرت لوجودي بين الأدبيات الجزائريات ."

هذا عن بدايات الكتابة الروائية النسائية، وهي جدّ متأخرة بالقياس إلى بداية نشاط الحركة الأدبية الروائية الرجالية في الجزائر، التي يعود ظهور إرهاباتها إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية في شكلها الفني البدائي مع "أحمد رضا حوحو"، في حين تأخرت الرواية

الرواية النسوية العربية الجزائرية من الحضور الممتد إلى التأصيل

النسائية إلى سنة 1979 مع أول رواية "يوميات مدرّسة حرة" لـ "زهور ونيسي"، أين نلاحظ نضجاً في التعبير والتصوير والرؤية المتميزة للواقع الاجتماعي والسياسي مع ارتباط ذلك بكل ما هو ذاتي له صلة وثيقة بذات المرأة الكاتبة وطريقتها في إدراك القضايا المحيطة بها والتعبير بصدق عنها.

3. مرحلة انفتاح الكتابة الأدبية النسائية :

تميزت المرحلة السابقة من كتابة المرأة الروائية بخروجها من الصمت والاستكانة التي عاشت فيها فترة من الزمن، وإذا كانت الفترة من ستينيات إلى نهاية سبعينيات القرن العشرين تتسم بالتمرد عن القيود الموروثة، والخروج عن الحقائق والأعراف المعهودة، فإن فترة الثمانينيات اتّصفت بانفتاح المجتمع الجزائري على غيره من المجتمعات، وقد استطاعت المرأة تحقيق مكاسب كثيرة، واعتلت مناصب سياسية مرموقة، فبرزت أسماء عديدة نشرت أعمالها وأخرى طبعت إنتاجها خارج الجزائر مثلما هو الحال مع أحلام مستغانمي، فضيلة الفاروق، ياسمينه صالح وزهرة ديك...

فقد بدأت أحلام مستغانمي مسيرتها الأدبية شاعرةً، فأصدرت ثلاث مجموعات شعرية (على مرفأ الأيام، الكتابة في لحظة عربي، أكاذيب سمكة)، ثم تحولت إلى عالم الرواية فقدمت ثلاثيتها (ذاكرة الجسد، فوضى الحواس، عابر سرير)، وفضيلة الفاروق التي خاضت تجربة كتابة الرواية فكان لها (تاء الخجل، اكتشاف الشهوة، مزاج مراهقة)، أما ياسمينه صالح فكتبت رواية (بحر الصمت وطن من زجاج، لحضر).

من خلال رصدنا لمسار حركة، نشأة وتطور النص الروائي النسائي العربي في الجزائر، تبين لنا كيف بدأ ظهوره محتشماً في محاولات قصصية للعديد من القاصات، ثم يرتقي في أول نصّ روائي لـ "زهور ونيسي" ليتطور فيما بعد ويتوسع ليشمل نصوصاً روائية

لكاتبات أدبياتٍ أُخرياتٍ سَرْنَ على الدرب الذي رسمت معالمه زهور ونيسي، فأثرينَ بها المشهد الأدبي والثقافي الجزائري .

في مرحلة الانفتاح والارتقاء هذه، تنامت ثقة الروائيات الجزائريات بقدرتهنَّ على التعبير، فقد بدأن بالتنقيب في التاريخ وربطه بالواقع المعيش الذي تجسد في حياة الإنسان في بيئة معينة، وفي وضعه الاجتماعي بما يطبعه من بؤس أو رخاء وعلاقته بالإنسان والأرض، وموقفه من الأنظمة والقوانين الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وأخيرا في مشاعره وأحاسيسه وعواطفه، إنه واقع واسع يشمل مظاهر الوجود الإنساني في مجتمع معيّن¹⁵

كما أخذت المرأة مركز الكون في نص الروائي النسائي حيث، علا صوتها ليشخص معاناتها بكل حرارتها وصدق تفاصيلها، هنا يتوارى الهم العام، ليفسح المجال للهم الذاتي، تفرط الروائية في التعبير عن التفاصيل التي تصب في أوجاع المرأة، وبخاصة حالة الإحباط التي تعيشها نتيجة نظرة الرجل القاصرة إليها.

محوّر آخر وجدت فيه الكاتبة الجزائرية فسحة للتعبير عن رأيها إنه يدخل في صلب معاناة المرأة، يتمثل في علاقتها بجسدها، وفعل الزمن فيه سلبا إذ تتجلى عقدة انحسار الجمال الأثنوي وذبول جسدها ماديا ونفسيا، والذي تسبب في أحيان كثيرة في شرخ علاقتها مع الرجل، ولا يأتي الحديث عن هذه الأزمة إلا عبر لغة سردية محمّلة بخصوصية إبداعية ترقى إلى مصاف الشعرية، تخطّها الروائية حين تمزج بين بناء الرواية والتجربة الحياتية في اتساق فنيّ وانسجام فكري تامين.

على ضوء ما سبق، نخلص إلى أنّ الرواية النسائية الجزائرية بدأت تشق طريقها بخطوات ثابتة وتؤسس لنفسها حضورا أدبيا متميزا إذ بدت اللغة أكثر حيوية وجمالا، ابتعدت عن الخطابية والتقريبية الجوفاء والرتابة المملة راحت اللغة تكشف عن حيويتها وقدرتها على سبر أغوار الذات بلغةٍ شعريّةٍ تسلّب الألباب، ولعلّ ما ساعد الرواية في ذلك

الرواية النسوية العربية الجزائرية من الحضور الممتد إلى التأصيل

استفادتها من تقنيات الرواية الحديثة الذي تتفاعل فيه البنى المكونة للخطاب الروائي، لتصنع بنية فنية منسجمة.

الهوامش

- 1- عبد الله الغدامي : المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب ط 3-2006 ص: 182
- 2- رفيق صيداوي : الكاتبة وخطاب الذات، المركز الثقافي العربي . بيروت ط 1. 2005، ص: 22
- * فاطمة الزهراء إيلايان لجأت إلى نشر روايتها الأولى (العطش) تحت اسم مستعار "آسيا جبار" الذي أصبح اسم شهرتها فيما بعد .
- 4- أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر ط: 5، 2007، ص : 96.
- 5- حفناوي بعلي : الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، الذات المعلومة وأسئلة الحدائثة ؛ مقارنة في خصوصية الأدب الجزائري الحديث
- 6- عز الدين جلاوجي : زهور ونيسي دراسات نقدية في أدها / مقالات، الجزائر، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، ص : 90 .
- 7- باديس فوغالي : التجربة القصصية النسائية في الجزائر، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، 2002، ص: 10.
- 8- عبد الله ركيبي : القصة الجزائرية القصيرة، الدار العربية للكتاب، 1983، ص : 31 .
- 9- عايدة أديب باهية : تطور الأدب القصصي الجزائري (1925-1967) ترجمة محمد صقر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص: 306 .
- 10- واسيني الأعرج : اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص : 55 .
- 11- فايز الداية : جماليات الأسلوب (الصورة الفنية في الأدب العربي) دار الفكر، بيروت، ط 2، 1996 ص : 35 .
- 12- ينظر شريط أحمد شريط : تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة (1947 - 1985) منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998، ص: 49.
- * - كتبت زهور ونيسي أول مقال " إلى الشباب " سنة 1954 بجريدة البصائر العدد 297، وكانت بداية الفن القصصي النسائي الجزائري بالصورة القصصية المعنونة " جناية أب " نشرتها ونيسي في البصائر العدد 305 سنة 1955 .
- *- زليخة السعودي أديبة وقاصة جزائرية ولدت في 20/12/1943 بقرية بابر بولاية خنشلة، اشتغلت بالتعليم، بدأت الكتابة سنة 1958 ونشرت أعمالها في جرائد وطنية غداة الاستقلال، توفيت بعد عملية ولادة قيصرية في 22/11/1972 بالجزائر العاصمة .

- 13- الطاهر وطار: مرحبا بالأدب النسوي، جريدة الأحرار العدد 16، السنة الأولى، 1962
- * - جميلة زير صدرت لها أول مجموعة قصصية (دائرة الحلم والعواصف) سنة 1983، وقصة طويلة (ثقوب في ذاكرة الزمن) أعادت كتابتها وأصدرتها في رواية بعنوان (أوشام بريرية)
- 14- زينب الأعرج: السمات الواقعية للتجربة الشعرية في الجزائر، ص: 54 .
- 15- أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص: 56